صراع اللغات في ضوء التفاعل الحضاري عامل من عوامل نموّها

أ. أحمد بن عمار
جامعة تلمسان

اقترنت العلاقات بين المكونات البشرية بمختلف أشكالها، بوجود هذا الكائن على وجه الأرض، وبذلك شكّل التفاعل بين الشعوب والثقافات المتباينة جزءا مهما من الحياة اليومية للبشر، وهو ما انعكس بشكل مباشر على كل ما له علاقة بالإنتاج المادي والمعنوي للمجتمعات الإنسانية، وساهمت هذه العلاقات في رسم وتوجيه الخصوصيات الثقافية للشعوب في الاتجاهين الإيجابي والسلبي منها.

وعموما ساهم تواصل البشر فيما بينهم–على اختلاف أعراقهم ومعتقداتهم وانتماءاتهم الجغرافية–في تطوير الإنتاج الحضاري بكل أشكاله وفي جلّ مستوياته لجميع الحضارات وعبر المراحل المتعاقبة للتاريخ البشري. فنمو وتطور المعارف والخبرات الإنسانية يعتمد بشكل أساسي على تراكم جهود جميع مكونات العناصر البشرية، فيجو يتجاوز كل الحدود التي من شأنها أن تعيق عملية الأخذ والعطاء بين الشعوب المتباينة الثقافات.

ويكون التواصل بين الحضارات في ظروف الحرب، والسلم، وبواسطة آليات متعددة. ويبقى تبادل جوانب التأثير والتأثر بين الشعوب المتواصلة فيما بينها حاضر في جميع الظروف، وفي مستويات متعددة، ولعلّ المجال اللغوي من أهمها؛ بحيث ينتج عن التفاعل بين الثقافات المختلفة اللغات، أثار بالجملة على المستوى اللغوي منها بشقيها الإيجابي والسلبي، وسنحاول أن نقف عند الآثار الإيجابية منها في ضوء التواصل الحضاري، وفي إطار الصراع اللغوي الناتج عن عملية التفاعل بين الثقافات.

ويذهب "حلمي خليل" إلى أنّ علاقة اللغة بالحضارة مبنية على التشابه، «في أنّ كلّ منهما نادرا ما تنغلق على نفسها، فالضرورات التي تلجئ حضارة ما للتأثر بحضارة أخرى تجاورها، هي بعينها التي تدفع إحدى اللغات للتأثر بلغة مجاورة لها، أو دخيلة عليها، وقد يتمّ ذلك عن طريق اتصال مباشر بين اللغتين، فأحيانا يكون سلميا قائما على تبادل المنافع الحضارية كالفن والعلم والدين، أو عنيفا بغرض الغزو والفتح». [1]

ونظرا للصلة الوثقى بين اللغة والمجتمع فإنّ التغير الذي يطرأ على ملامح الحياة الاجتماعية للمستخدمين للغة معينة ينعكس بشكل مباشر على اللغة نفسها، والمجتمعات البشرية تتميّز بعدم الاستقرار في حالة واحدة، في العلاقات الداخلية والخارجية للمجتمعات، ومهما كانت طبيعة هذه العلاقة الخارجية للمجتمعات البشرية فإنها تحدث آثارا إيجابية أو سلبية على المستوى اللغوي من حياة الجماعات البشرية.

فالعامل الاجتماعي مهم في التطور اللغوي، وذلك بفضل "الصراع بين اللغات" بحكم أنّ اللغة كائن حي، تتطور خلال حياة تطول أو تقصر ثم تموت في النهاية، «إمّا بموت الأمة التي كانت تتكلمها واندثارها، وغما لأنّ تلك الأمة قد غيّرت لسانها والصراع على الحياة، كما هو قائم بين الكائنات الحية، يقوم أيضا بين اللغات، بل بين الألفاظ في داخل اللغة الواحدة». [2]

ويرى "حلمي خليل" ثانية أنّ «الصراع بين اللغات يتولد عنه تغيّر وتطور يصيب إحدى اللغتين المتصارعتين أو يصيبهما معا، وغالبا ما تتأثر لكل منهما بالأخرى؛ حتى ولو هزمت إحداهما أمام الثانية، وهذا القانون شبه حتمي تخضع له اللغات جميعا. إذ من الصعب تصور لغة ما بمنأى عن هذا الصراع، وبالتالي لم تتأثر به، وحافظت على نقائها إلى الأبد». [3]

ويفهم من هذه المقولة استحالة سلامة لغة ما من أثر غيرها من اللغات سواء عن طريق احتكاك مباشر أو غير مباشر، وهذا العامل الخارجي في تطور اللغات لابدّ منه لكي تضمن اللغات ديمومتها واستمراريتها في إطار يلبّي حاجات المستخدمين لها.

بحيث أصبح من المسّلم به عند اللغويين، «إنّ احتكاك اللغات ضرورة تاريخية وهذا الاحتكاك يؤدي إلى تداخلها إما قليلا وإما كثيرا ويكادون يقطعون بأنّ التطور الدائم للغة من اللغات، وهي في معزل عن احتكاك وتأثر خارجي يعدّ أمرا مثاليا، لا يكاد يتحقق؛ ذلك لأنّ الأثر البالغ الذي يقع على إحدى اللغات من لغات مجاورة لها، كثيرا ما يلعب دورا هاما في التطور اللغوي ويترتب عليه نتائج بعيدة المدى إلى درجة أنّ بعض العلماء يذهبون إلى القول بأنه لا توجد لغة متطورة لم تختلط بغيرها». [4]

لكن ما ينبغي الإشارة إليه هنا أنّ الاحتكاك بين لغتين متجاورتين، لا يحدث دائما على وتيرة واحدة، في جميع الحالات، بحكم أنّ قوة اللغات ليست واحدة، ومن ثمّ اختلفت قدرتها على المقاومة؛ فاللغة الألمانية والفرنسية مثلا، لغتان قويتان تستويان في القوة، وبينهما اختلافات لغوية كبيرة، فإذا ما تعرضتا للمنافسة والاحتكاك، كانت المنافسة بينهما، تكاد تكون محصورة في الميدان الاقتصادي وحده، ذلك أنّ الانتصار الذي تناله إحدى اللغتين، يكون في ميدان المعاملة؛ أي في صميم الحياة نفسها. [5]

وبفضل مجموعة من العوامل التي تعمل على تفعيل ونمو الحضارات اعتبارا لمساهمتها (العوامل) في تهيئة الظروف لتبادل جوانب التأثير والتأثر، في جميع المستويات الحضارية، والمستوى اللغوي من أهمها، ويتحدث "حسن ظاظا" عن أهمية هذه العوامل في تطوير ظاهرة التبادل بين اللغات في قوله: « فما الحروب والمعاهدات، والأحلاف السياسية والعسكرية، واتفاقات التجارة والصناعة، والصراع على توسيع مناطق النفوذ إلا محاولات وصورا لهذا التبادل الاجتماعي... كما أنّ المصاهرة والزواج بصوره المتعددة... أنواع وأساليب من هذا التبادل كذلك الشعائر الدينية المختلفة من صلوات جماعية، وحجّ وأعياد، ومواكب وغيرها، هي أيضا طرق لهذا التبادل، بل أنّ الهجرة الفردية والجماعية، والغزو الشامل، واندماج العشائر طوعا أو كرها بعضها في بعض، هي كذلك مظاهر من هذا التبادل».[6]

وتعتبر هذه الآليات من العوامل المساعدة على تهيئة المناخ العام للتبادل بين اللغات، الذي ينتج عن طريق الصراع المباشر أو الغير المباشر.

❖ **أسباب الصراع اللغوي:**

تتصارع اللغات فيما بينها سواء كانت هذه اللغات المتصارعة تنتميان إلى أسرة واحدة أو إلى أسر متباينة. والصراع اللغوي، «هو ذلك التنافس بين لغتين أو أكثر للهيمنة في مجتمع ما، وتختلف نتائج الصراع وآثاره تبعا لنوع العامل ومداه، يعني إذا كان هناك صراع بين لغتين في مجتمع ما تختلف نتائج وآثار هذا الصراع تبعا لنوع العامل ومداه، فهناك عوامل للصراع اللغوي» [7]، والتي من أهمها:

1) أن ينزح إلى أحد البلاد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير أهل هذا البلد؛ ويحدث ذلك على أثر فتح أو حرب أو استعمار أو هجرة، حيث ينزح عنصر أجنبي يتكلم لغة غير أهله، فتشتبك اللغتان في صراع ينتهي،

أما بأن تنتصر إحداهما على الأخرى فتصبح لغة السكان، أصيلهم ودخيلهم وإما ألا تقوى إحداهما على الأخرى فتعيشان جنبا إلى جنب. [8]

ولحسم الصراع اللغوي ينبغي توفر عدة عوامل؛ والتي تحدّد النتائج من خلالها، ويكون الصراع في عدة حالات:

– أن يكون الغزاة أكثر عددا بأضعاف من أهل تلك اللغة، بحيث يصبح استقرارهم بلغتهم في الأرض المفتوحة أشبه بطوفان يبتلع الشعب الأصلي الأقل عددا، ولغته معا، كغزو الساميين القدماء للعراق، حيث كان الشوميريون يقيمون منذ ما قبل التاريخ، وباكتساح الساميّين لهم تلاشوا هم ولغتهم. [9]

– وفي الحالة الثانية يكون التساوي في العدد تقريبا بين الغزاة والسكان الأصليين، وينبغي أن يكون الغزاة أعلى درجة في الحضارة من الأمة التي أصيبت بالغزو، وإلا فإنّ الغزاة هم الذين يفقدون لغتهم، وتنتصر لغة المنهزمين كما حدث عندما هاجمت القبائل المتبربرة– حسب تعبير حسن ظاظا–أوروبا اللاتينية التي كانت شعوبها أكثر تقدما في الحضارة، ولذلك ترك هؤلاء البرابرة لغاتهم الأصلية، بل تركوا أديانهم الوثنية، وباعتناقهم المسيحية اصطنعوا اللغة اللاتينية. [10]

وفي الحالة نفسها، أي حالة التساوي في العدد، وكان الغزاة متحضرون فإنهم يقتلون لغة الأمم المفتوحة بغرض لغتهم في العلم والثقافة والتجارة ونحوها، وبذلك يترك من لا يتقن اللغة بلا عمل ولا فرصة طيبة للتعلم والارتزاق. ومثال على ذلك، سيادة اللغة الإسبانية أو البرتغالية بين شعوب أمريكا اللاتينية، وهذه الظاهرة ممكنة الحدوث، حتى إذا كان الغزاة أقل عددا بكثير بشرط أن يكون رقيهم الحضاري والاقتصادي ساحقا. [11]

والأمر نفسه حدث مع الشعوب المستعمرة من طرف فرنسا في إفريقيا وجنوب شرق آسيا، وكذلك المستعمرات الانجليزية في الشرق الأوسط وبعض الأجزاء من إفريقيا.

2) والعامل الثاني من عوامل الصراع اللغوي أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة فيتبادلان المنافع، وتتاح لأفرادها فرص للاحتكاك، وغالبا ما ترجع هذه الشعوب المتجاورة إلى أصول شعبية واحدة متقاربة ويؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية.[12] ويكون ذلك بتجاور شعبين مختلفي اللغة، حيث ينتهي الصراع أيضا بتغلب إحداهما على الأخرى، أو ببقائهما جنبا إلى جنب، وغالبا ما يكون الانتصار لتلك التي يتكلم بها عدد كبير من الشعبين، ثم يتزايد عدد أفراده فيشتدّ ضغطه على حدود الشعب المجاور له، وتكثر تبعا لذلك عوامل الاحتكاك والنزاع بين اللغتين.[13]

وفي هذه الحالة قد تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له، على شريطة ألا يقل عن أهلها حضارة وثقافة، ومثال على ذلك طغيان اللغة الألمانية على نطاق واسع من المناطق المجاورة لألمانيا كسويسرا، وبولونيا، والنمسا. [14]

وفي جميع الحالات لا يمكن أن يتم انتصار أيّة لغة على الأخرى إلا بعد طول الزمن، قد يبلغ أحيانا بضعة قرون، كما أنّ اللغة المنتصرة لا تسلم من آثار اللغة المغلوبة، على أنّ طول احتكاكها بهذه اللغة (المغلوبة) يجعلها تتأثر بها في بعض مظاهرها وخاصة في مفرداتها. [15]

وبذلك يمكن القول بأنّ الصراع اللغوي يلقي بظلاله على اللغتين المتصارعتين دون استثناء الغالبة والمغلوبة على السواء، كما حدث للغة العربية حيث انتصرت في مرحلة الفتوحات على لغات الشعوب المفتوحة، واستبدلت

جغرافية هذه اللغة بجغرافيتها كذلك، كما لم تسلم العربية من دخول العديد من الألفاظ إليها من الفارسية، والحبشية، والآرمية... على الرّغم من أنها اللغة المنتصرة في الصراع، وهنا يكمن دور الصراع في تنمية اللغات.

ويشير "رمضان عبد التواب" إلى أنّ للعامل السياسي أهمية كبرى في هذه المسألة كذلك؛ لأنّ بعض الشعوب تتمسك بهذه اللغة دون تلك ويرخى لها عمدا عنان التفشّي، مدفوعة بعاطفة وطنية، أو محاولة نيل استقلالها، أو نفورا من دولة مجاورة لها، وهذا ما شاهد في الأقطار البلقانية. وفي أيرلندا، حيث تتجه حركة وطنية إلى إحياء اللغة القديمة للبلاد. [16]

ويضيف "رمضان عبد التواب" ثانية، العامل العاطفي في مسألة صراع اللغات بناءا على ما له من أثر في المحافظة على سلامة الكثير من اللغات وبقائها؛ وهو عامل "الهيبة"، وكثيرا ما يكون هذا العامل مستمدا من القيمة الذاتية للغة، كاللغة اليونانية التي كانت تمثل ثقافة من أعرق الثقافات البشرية؛ ولذلك لم تستطع اللغة اللاتينية التغلب عليها، ولم يستطيع الاحتلال التركي للشرق- حسب تعبير رمضان عبد التواب- خلال قرون عديدة، من القضاء على اللغة العربية، وإحلال التركية محلها؛ لأنّ اللغة التركية ليست بأيّة حال من الأحوال، من لغات الحضارات الكبيرة، بخلاف اليونانية والعربية.[17]

هذه أهم العوامل الخارجية للصراع اللغوي، وفيما يلي عرض لأهم العوامل الداخلية التي تعمل على صراع اللغات:

1) التعليم باللغات الأجنبية:

نرى اليوم في واقعنا العربي مثلا طغيان هذه الطريقة، في التعليم بمختلف مستوياته، وإن كانت هذه الطريقة ضرورية لدرجة لا يمكن الاستغناء عنها في بعض الأحيان، وربما كانت العشوائية في استعمال هذه الطريقة في العملية التعليمية سواء أكان كذلك عن قصد أو غير قصد سببا في إحداث صراعا لغويا بين اللغة العربية واللغات الأجنبية لدرجة تهديد كيانها.

وبذلك اعتبر «تعليم العلوم باللغات الأجنبية في مراحل التعليم العام ولاسيما المراحل الأولية يعدّ أشدّ خطورة على اللغة العربية وهوية أهلها؛ لأنّ المتعلم في السن المبكرة لم يتمكّن بعد من لغة الأصلية، واستخدام أنظمتها المختلفة (الصوتية....)، وبالتالي فإنّ تقديم أيّ لغة أجنبية سيسهم في عدم إتقان لغته الأم فضلا عمّا يترتب عليها من عدم اعتزاز بلغته، [18] ومن أثر هذه العملية نجد:

- الصراع اللغوي بين المنتمين للغة العربية، ما يمكن اعتباره أكبر خطرا على اللغة العربية.
- ضعف الاعتزاز؛ إنّ هذا العامل له أثر كبير في جانب الاستعداد النفسي تجاه العربية مثلا، لأنه كلما قوى هذا الاعتزاز كلما انعكس ذلك بشكل إيجابي على اللغة العربية، والعكس صحيح.
- تلاشي الهوية؛ يشكل تعمّد التعليم باللغة الأجنبية خطرا بالغا على اللغة باعتبارها كعنصر مكوّن للهوية الوطنية أو القومية للشعوب، وانتهاج هذا السبيل خطوة أولى في تتفيه هذا المكون». [19]

2) الإعلام:

لهذه الوسيلة دور عظيم الأثر في تفعيل ظاهرة الصراع بين اللغات، لأنها تساهم في إحداث الصراع اللغوي من خلال العمل على نشر اللغة الأجنبية، ورفع مكانتها، بواسطة محفزات وإغراءات وضعت خصيصا لهذا الغرض، العامل يشكل خطرا على اللغة الأمّ.

عموما هذه أهم العوامل الداخلية التي تعمل على تفعيل هذه الظاهرة.

❖ **مراحل الصراع اللغوي**:

وحصرها "رمضان عبد التواب" في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وفيها تطغى مفردات اللغة المنتصرة، وتحل محل اللغة المقهورة، شيئا فشيئا وتكثر هذه الكلمات أو تقل تبعا للمقاومة التي تبديها اللغة المهزومة، فاللغات المهزومة أمام اللغة العربية لم تترك في اللغة العربية المنتصرة إلا كلمات قليلة، وكذلك الحال في اللغات التي تغلب عليها اللاتينية.

وفي حالة ما إذا كان الصراع بين اللغتين شديدا، وأمده طويل، فإنّ اللغة المقهورة، قد تحتفظ بمفردات كثيرة، تدخل في اللغة الغالبة. [20]

المرحلة الثانية: وفيها تتغير مخارج الأصوات، ويقترب النطق بها، من النطق بأصوات اللغة الجديدة شيئا فشيئا، حتى تصبح على صورة تطابق أو تقارب الصورة التي هي عليها في اللغة المنتصرة؛ وذلك بأن يتصرف المغلوب تصرف الغالب في النطق بالأصوات، فتتسرب بذلك أصوات اللغة الغالبة إلى اللغة المغلوبة، في طريقة نبرها، ومخارجها، فينطق أهل اللغة المغلوبة ألفاظهم الأصلية، وما انتقل إليها من كلمات دخيلة، وتعدّ هذه المرحلة أخطر مراحل الصراع اللغوي. [21]

المرحلة الثالثة: وفي هذه المرحلة تفرض اللغة المنتصرة قواعدها وقوانينها اللغوية، الخاصة بالجمل والتراكيب، وبهذا تزول معالم اللغة المقهورة، وحينئذ تبدأ اللغة المنتصرة، في إحلال أخيلتها واستعاراتها، ومعانيها المجازية، محل الأخيلة والاستعارات والمعانين للغة القديمة التي تموت شيئا فشيئا هي الأخرى.

والملاحظ أنه في كل صراع لغوين لا تتم هذه المراحل دفعة واحدة، ولا تختفي لهجة أو لغة، إلا وقد تركت بعض مفرداتها أو تراكيبها أو قواعدها، أو أثرت بأيّ صورة من الصور، في معاني المفردات للغة الجديدة. [22]

وخلاصة القول، أنّ أثر الصراع اللغوي تجلى في تاريخ اللغة العربية حيث أفادت واستفادت في إطاره، فاستفادت من العديد من المفردات من اللغات السامية في المراحل الأولى من حياتها، كما استفادت من ألفاظ لا تعدو لا تحصى من لغات أخرى كالفارسية واليونانية والهندية عن طريق التجارة أو الجوار أو الفتوحات الإسلامية، وأفادت هي الأخرى العديد من اللغات التي انتصرت عليها في عملية الصراع كالبربرية، والحبشية، والقطبية...، وعموما كان هذا الأخذ والعطاء في إطار التواصل الحضاري بين شعوب تنتمي إلى حقول لغوية متباينة.

فهرس المصادر والمراجع

1. حلمي خليل، المولّد: دراسة في نموّ وتطور اللغة العربية بعد الإسلام، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1978، ص: 48.

2. حسن ظاظا، اللسان والإنسان، ط2، دار القلم، دمشق، 1990، صك 115.

3. حلمي خليل، دراسة في نمو وتطور اللغة العربية بعد الإسلام، ص: 53.

4. حاتم صالح الضامن، علم اللغة، د.ط، مطبعة التعليم العالي، الموصل، 1989، ص: 118.

5. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ط3، مكتبة الخفاجي، القاهرة، 1997، ص:171.

6. حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، د.ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1996، ص: 57.

7. شادية بيومي حامد، الصراع اللغوي أسبابه ونتائجه، قسم الدعوة وأصول الدين، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا،

8. حلمي خليل، المولّد، ص: 49.

9. حسن ظاظا، اللسان والإنسان، ص: 117.

10. المرجع نفسه، ص: 118.

11. المرجع نفسه، ص: 119.

12. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ط9، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القامرة، 2004، ص: 208.

13. حلمي خليل، المولّد، ص: 50.

14. علي عبد الواحد في علم اللغة، ص: 219، وحلمي خليل، المولّد، ص: 50.

15. حلمي خليل، المولّد، ص: 51.

16. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص: 172.

17. المرجع نفسه، ص: 172-173.

18. إبراهيم بن علي الدبياني، الصراع اللغوي، مداخلة في مؤتمر الثالث لعلم اللغة بعنوان: "التعليم باللغات الأجنبية في العالم العربي"، كلية دار العلوم، القامرة، 16-17 محرم 1427هـ، ص: 13.

19. المرجع نفسه، ص: 13-14.

20. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص: 174-175.

21. المرجع نفسه، ص: 175.

22. المرجع نفسه، ص: 176.